وبناء على ذلك كان على الحزب ان يناضل على صعيد بنائه الذاتي للتخلص من التأثيرات الصهيونية . لكنه سرعان ما اكتشف ان النضال على هذا الصعيد ليس سوى نتيجة الترابط الجدلي بين ذلك وبين المحاور الأربعة السابقة . وعلى اساس ذلك ـ والكلام للاستاذ سمارة ـ خاض معركة فاصلة مع القوى الصهيونية . ورغم الشك في كون هذه المعركة قد ادت الى نتائج هامة على مستوى هذا الهدف ، الا انها افادت في ابراز ضلال وهبوط موضوعية « الصهيونية البروليتارية » هبوطاً كاملاً وذلك حين عمدت القوى الصهيونية الى طرد الحزب من مؤسساتها فأنهت بذلك أية محاولة توفيقية بينهما موضوعياً .

هناك هاجس اساسي يدور في ذهن الباحث الفلسطيني سمارة منذ بداية كتابه وحتى آخره ، حول طبيعة كافة المؤسسات اليهودية التي جاءت في اطار المشروع الكولونيالي الصهيوني . لذا نراه ضد النظرة اليها كمؤسسات برجوازية أو عمالية في ظل مجتمع متكامل المعالم كما هو الامر في اي بلد رأسمالي كفرنسا أو بريطانيا أو بلجيكا . فهذه المؤسسات تم تركيبها على أرض هي أصل لقومية وشعب آخر .

ومن هنا يخلص المؤلف الى الاستنتاج التالي : « ان مصدر الخطأ هو اعتبار الحزب التجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين يتمتع بنفس السمات والمميزات التي يتمتع بها أي مجتمع آخر ، وان تشكيله الطبقي والسياسي مماثل لأي تشكيل آخر » (ص ١١٢) .

غير أنه يتناول فيما بعد التحولات الفكرية والممارسة التي طرأت على حياة الحزب ، ويحاول حسم القضية في ذهنه اثناء تناوله تقرب الحزب من الجماهير العربية واليهودية ، واثناء اتجاه قيادته لمد الجسور مع الرفاق العرب وارسالهم في دورات حزبية الى معهد كادحي الشرق في موسكو ، واعطائهم فيما بعد مراكز قيادية في الجهاز التنظيمي والاعلامي للحزب . ويولي هنا الاستاذ سمارة أهمية خاصة لمجلة « حيفا » ولرئيس تحريرها « ايليا زكا » في تعريف خط الحزب للجماهير العربية من خلال نشره الافكار الاشتراكية ومن خلال تركيزه على طبقية الصراع ضد الامبريالية والصهيونية ومن خلال تشجيعه المهاجرين اليهود للعودة الى اوطانهم الاصلية .

ولعل احد الاسباب التي دفعت بخط الحزب اقدما صوب الجماهير العربية ، اقالة ممثليه من الهستدروت . وحول هذا الموضوع يقول المؤلف : « ان الضربة [من الهستدروت ـ س.ع] قد وضعت الحزب امام الطريق المسدود من حيث دوره في التجمع اليهودي ومنذ تلك اللحظة اصبح على الحزب ان يعرف بوضوح تكتيكه أو خطه القديم الذي يجعله يضع قدماً في ارض التجمع اليهودي ، اي في أرض المشروع الصهيوني ، والقدم الاخرى في ارض الجماهير العربية . ان هذا التكتيك لم يعد مجدياً وبات على الحزب ان يحزم موقفه بوضوح كامل من مسألة انتسابه الى قضية الجماهير العربية التي تحتل الموقع المركزي في الصراع الدائر » (ص ١٣٥) .

انتفاضة آب ، الحزب والانزلاق

هذا هو عنوان الفصل الخامس ، حيث يتناول الكاتب طابع الانتفاضة . لقد دخل في صلب هذا الحدث التاريخي بدون ان يتوقف عند اسبابها ومضمونها والقوى القائدة والمحركة لها ، ويستعرض موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من هذا الحدث الهام الذي زلزل المشروع الصهيوني . كما يُستنتج من تحليل المؤلف ان الحزب كان غائباً عن مجريات الاحداث . فالانتفاضة ساهمت في تبلور اتجاهين كانا يعيشان داخل الحزب . الاول ، الذي كان يدعو للتعاون والتحالف مع الحركة القومية العربية وكان هذا الاتجاه يلاقي التأييد المطلق من الكومنترن والاتجاه الثاني ، الذي اطلق على نفسه اسم « مجلس العمال اليهود » الذي بقي أسيرا للطروحات الأولى للحزب في بداية العشرينات .

وظهر نقاش حاد داخل الحزب في معرض تقييم أحد اهم الانتفاضات التي عاشها الشعب العربي الفلسطيني في تلك الفترة . فمنهم من وصفها بانها « مذبحة » ، وهذا هو تقييم لجنة حيفا الحزبية المتأثرة بخط « مجلس العمال اليهود » . اما اللجنة المركزية فقد وصفتها بانها مذبحة + حركة تحرر للجماهير العربية (ص ١٦٩ ـ ١٧٠) .

في الواقع ان هذه الانتفاضة احدثت فعلاً بلبلة داخل الحزب ، تركت ذيولها وانعكاساتها على صفحات مجلات الاممية الشيوعية في اعوام ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ ، ١٩٣١ . وبالتحديد مجلة المراسلات الاممية التي كانت تصدر بالفرنسية والانكليزية